

The motives of religious discourse in the poetry of Ibn Abd Rabbo Al-Andalusi

م.م. صهيب مجيد ناجي*

Sohaib majeed naji

Sohaib.m.naji@gmail.com

المخلص

يعد الخطاب الديني من القضايا المهمة التي أولاها الشعراء عناية كبيرة؛ لما له من دور في بناء المجتمع وتشكيل هويته وتوجيه سلوكه؛ لما يحتويه من المعاني السامية والتوجيهات التي تهذب الانسان وترتقي بسلوكه، ولدوره الهام في بناء الوعي الفردي والجماعي .

من هنا سعى هذا البحث إلى دراسة بواعث الخطاب الديني في شعر ابن عبد ربه الأندلسي، مليح الأندلس وشاعرها المتميز، وقد وقفت فيه على أهم تلك البواعث والدوافع الدينية التي ساهمت في إنتاج شعر ابن عبد ربه، إذ كان للخطاب الديني أثراً جوهرياً في ولادة نصوصه الشعرية مقتنياً فيها القيم الدينية والأخلاقية، إذ جاء الكثير منها في المواعظ والزهد وأطلق عليها اسم (الممحصات) تلك القصائد التي قالها عندما كُبر في السن، وأحس بقرب أجله، وقد كان لتلك المجموعة الشعرية مساحة كبيرة من التأثير في حياة المجتمع، لذا وجدت أنّ هذه البواعث جديرة بالدراسة لا يمكن التغافل عنها.

جاءت هذه الدراسة على ثلاثة مطالب: المطلب الأول (الباعث السياسي) تناولت فيه تأثير الأوضاع السياسية في الشعر والشعراء، وأنّ الشاعر ابن عبد ربه قد وجد في السياسة أحد بواعث الخطاب الديني، وأنّه مزج في قصائده السياسية بخطابه الديني، عززت ذلك بالشواهد الشعرية.

* دائرة التعليم الديني والدراسات الإسلامية، ديوان الوقف السني.

وجاء المطلب الثاني تحت عنوان (الباعث النفسي)، فقد وجد ابن عبد ربه هذا الباعث حافزاً على الانتاج الإبداعي، والبوح عمّا في داخله، إذ شارك هذا الباعث في تشكيل الخطاب الديني في اشعاره، وعززت لهذا المطلب بالشواهد الشعرية التي تفي لهذا الغرض.

أمّا المطلب الثالث فقد وسم بـ (الباعث الاجتماعي)، إذ كان الخطاب الديني الرافد المهم الداعم للمجتمع، فهو يساهم في ترسيخ العادات والقيم التي ستؤثر حتماً في سلوك الأفراد وأخلاقيتهم، لذا فإن ابن عبد ربه لا يجد بُدّاً من استدعاء المعاني والألفاظ الدينية، وتوظيفها في نصوصه الشعرية، وهذا ما وجدناه في الشواهد الشعرية المذكورة في هذا المطلب.

الدراسات السابقة: (محصّات ابن عبد ربه، دراسة موازنة. د. أنور يعقوب زمان، جامعة طيبة. والتكرار في شعر ابن عبد ربه، دراسة فنية. د. سليم ساعد السلمي، جامعة تبوك.)

الكلمات المفتاحية: البواعث، الخطاب الديني، العصر الأندلسي، البواعث السياسية، البواعث الاجتماعية، البواعث النفسية

Abstract

Motivations of religious discourse in Ibn Abd Rabbuh's Al-Andalusi poetry

Religious discourse is one of the important issues that poets paid great attention to; because of its role in building society, shaping its identity and directing its behavior; because of the lofty meanings it contains and guidelines that polite man and raise his behavior, and for his important role in building individual and collective awareness

Hence, this research sought to study the motives of religious discourse in the poetry of Ibn Abd Rabbo Al-Andalusi, Mleih Al-Andalus and her distinguished poet. She stood in it on the most important of those religious motives and motives that contributed to the production of Ibn Abd Rabbo's poetry, as the religious discourse had a substantial impact on the birth of his poetic texts, following religious and moral values, as many of them came in sermons and asceticism and were called (Al Mumahasat). Those poems that

he said when he grew older, and felt close to his term, and that group of poetry had a large area of influence in the life of society, so I found that these motives worthy of study and could not be overlooked .

This study came on three demands: the first requirement (political motive) in which it dealt with the impact of the political situation in poetry and poets, and that the poet Ibn Abd Rabbo had found in politics one of the motives of religious discourse, and that he mixed in his political poems with his religious discourse, which reinforced this with poetic evidence.

The second demand came under the title of (Psychological Motivation), Ibn Abd Rabbo found this motivated incentive for creative production, and the revelation of what was inside it, as this motivation participated in the formation of the religious discourse in its notice, and it was reinforced for this requirement with poetic evidence that serve this purpose

As for the third demand, it was labeled (the social motive), as the religious discourse was the important supporting supporter of society, as it contributes to the consolidation of customs and values that will inevitably affect the behavior and morals of individuals, so Ibn Abd Rabbo does not find a start in invoking religious meanings and words, and employing them in his poetic texts, and this is what we found in the poetic teemons mentioned in this requirement

Key words: (Motives, Religious discourse, The Andalusian era, Political, social, and psychological motives).

المقدمة

يعد العصر الأندلسي واحدًا من أهم العصور التي تزخر بموروث أدبي كبير يستدعي مزيداً من الدراسة، والبحث في فنون الأدب التي تزخر فيه وتسلط الأضواء عليها .

فالأدب في هذا العصر علا إلى أن يكون ابداع ضئيل شبيهه، فظهر شعراء كثيرون أجادوا بأشعارهم إذ أجادوا في اسلوب خطابهم الشعري؛ فكان العصر الأندلسي محط أنظار الدارسين عن جدارة واستحقاق. وقد كان اختيارنا الشاعر ابن عبد ربه الأندلسي في دراستنا؛ لأنه يعدُّ من الشعراء

المبدعين الذين امتازوا بالتجديد الاسلوبي فكان سريع الخاطر كثير الارتجال، كيف لا وهو "قدوة شعراء الأندلس وأدباءها"^(١)، وقد أنصفه الأستاذ احمد أمين وأشاد بشعره، فقال: (تراه يجتهد ما استطاع أن يأخذ من معاني المشاركة ويزيد عليها على الرغم من معارضتهم وكان الهدف من ذلك التفوق عليهم)^(٢).

وأكد لنا المتنبى الشاعر الكبير على ما يحمله شاعرنا من ابداع في الشعر وعلو منزلته الشعرية عندما سمع لأبيات له فقال: "يا ابن عبد ربه لقد يأتيك العراق حبوا"^(٣)

إنَّ للخطاب الديني عند شاعرنا الأثر الواضح في التشكيل الشعري؛ لما عليه من ثقافة دينية شأنه شأن الكثير من شعراء الأندلس يسترفدونها ويستوحونها في شتى فنونهم وأقوالهم، وقد ثبت عنوان البحث على (بواعث الخطاب الديني في شعر ابن عبد ربه الأندلسي) والذي سنحاول فيه أن نتطرق إلى دوافع الشاعر إلى اهتمامه بالخطاب الديني الذي كان له الحضور الكبير في نصوصه الشعرية، فكان من تلك الدوافع ما هو سياسي، ونفسي، واجتماعي.

المطلب الأول: الباعث السياسي:

تعد الأوضاع السياسية ذات تأثير واضح في الشعر والشعراء؛ لأنَّ الشعر هو ترجمة للواقع بلغة أدبية في السلم أو الحرب، والمعارك والحروب أكثر تأثيراً في الشعر؛ لأنها تفتح أمام الشاعر الأفق وتطلق له العنان لوصف المعارك ومدح الشخصيات والقادة والملوك، وغالباً ما يحاول

(١) رايات المبرزين وغايات المميزين، ابن سعيد، علي بن موسى بن عبد الملك المغربي، تحقيق: د. النعمان عبد المتعال القاضي، القاهرة، ١٩٧٣م، الصفحة: ٧٧.

(٢) ينظر الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، د. أحمد هيكل، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥م، الصفحة: ٢٢٨-٢٢٩ .

(٣) معجم الأدباء، ياقوت بن عبدالله الرومي الحمومي (ت: ٦٢٦هـ)، تحقيق: احسان عباس، دار الغرب الاسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م، الجزء: ١ الصفحة: ٤٧٦.

بواعث الخطاب الديني في شعر ابن عبد ربه الأندلسي

م.م. صهيب مجيد ناجي

الشاعر أن يوظف الخطاب الديني في قصائده التي يصف فيها تلك المعارك والفتوحات والانتصارات بأنها دينية أي للدفاع عن الدين ونشر الاسلام^(١).

فالشاعر ابن عبد ربه قد وجد في السياسة باعثاً لخطابه الديني، إذ إنّه مزج في قصائده السياسة بخطابه الديني؛ لأنّ أركان نظام الحكم كانت قائمة على الدين يستمد منه أحكامهم فجاءت تلك القصائد موزعة ما بين الجهاد في سبيل الله، ووصف الحروب والمديح للقادة والملوك، فضلاً عن الفتوحات والانتصارات الاسلامية، فكان ازدهار هذا النوع من الشعر في تلك الحقبة الزمنية ظاهرة طبيعية دعت إليها الحياة لاتصال النظام والأشخاص بالدين الذي هو أساس الحكم عند المسلمين^(٢)، ومن تلك الأشعار التي جاءت تحت هذا المبحث قوله في الجهاد في سبيل الله:

لئن عُرف الجهاد بكل علم فإنك طول دهرك في جهادٍ
وإنك حين أبت بكل سعد كمثل الروح آب إلى الفؤادِ
رأينا السيف مرتدياً بسيف وعائناً الجواد على الجوادِ^(٣)

رسم لنا الشاعر لوحة رائعة في تصوير المعركة وشجاعة وبطولة القائد ذلك الإنسان الذي يتجسد فيه آمال الناس ورغباتهم، وأكسب تلك اللوحة صفة دينية بفضل ثقافته الدينية التي كان عليها والتي لها الأثر الكبير في توجيه خطابه الشعري، ذلك أنّ الجهاد ذا ديمومة والقائد دائم في جهاده، وشبه هذا القائد وأهميته لجيشه كما الروح للجسد الذي لا حياة له، وحمل البيت الشعري الأخير صوراً رائعة من علم البديع تمثلت بكلمة السيف بالسيف وكذلك الجواد على الجواد، افضت على النص الشعري جمالاً فوق جماله.

وفي وصف الحروب يقول: .

فأنساب ناصر دين الله يقدمهم وحوله من جنود الله أنصار

(١) ينظر: أدب السياسة في العصر الأموي، أحمد محمد، دار نهضة للطبع والنشر، ١٩٧٩م، الصفحة: ١٠.

(٢) المفيد في الأدب العربي، أحمد أبو حاقّة، جوزيف الياس، إيليا حاوي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٦٤م، الصفحة: ٧٠١.

(٣) ديوان ابن عبد ربه الأندلسي، حققه وشرحه الدكتور محمد التونجي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، الصفحة: ٧٤.

كتائب تتبارى حول رايته وجحفل كسواد الليل جرّار
قوم لهم في مكر الليل غمغمة تحت العجاج وإقبال وإدبار^(١)

صوّر لنا ابن عبد ربه مشهداً من إحدى المعارك التي خاضتها كتائب المسلمين تحت راية القائد الناصر لدين الله وألبس هذا المشهد معانٍ إسلامية مستكملاً واقعية المشهد مشبهاً حشود المسلمين بسواد الليل للدلالة على الهدوء والسبات، لنتسمع أصوات الأبطال عند القتال، فجاء بهذه الصورة التشبيهية في وصف الحروب تأكيداً على ما قال: "وقد وصفنا الحرب بتشبيهه عجيب لم يُتقدّم عليه"^(٢).

وفي النصر والفتوحات يقول ابن عبد ربه:

قد أوضح الله للإسلام منهاجاً والناس قد دخلوا في الدين أفواجا
وقد تزينت الدنيا لساكنيها كأنما ألبست وشياً وديباجا
يابن الخلائف إنّ المزن لو علمت نذاك ما كان الماء منها ثجاجاً^(٣)

اقتبس الشاعر اقتباساً نصياً وهو: (ما التزم فيه الشاعر بلفظ النص القرآني)^(٤)، والباعث هنا هو نصر المسلمين في إحدى الغزوات بقيادة عبد الرحمن الناصر، ممّا سوّغ للشاعر استخدام الآية الكريمة في قوله تعالى: (وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا) النصر: ٢. مستحضراً حادثة فتح مكة وقدسيتها ليضيفها على انتصار المسلمين بهذه الغزوة، وكذلك استحضر الشاعر قوله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا مِنْ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا) النبأ: 41، فقد وظّف هذا النص القرآني مع ما يتناسب والبيت الشعري دون الإساءة إلى النص القرآني.

وقال أيضاً يهنئ الأمير عبد الله في فتوحه:

فكأنما جاست خلال ديارهم أسد العرين خلت بسرب نجاج

(١) الديوان: ٨٩.

(٢) الديوان: ٢٣.

(٣) الديوان: ٥٧.

(٤) معجم آيات الاقتباس، حكمت فرج البديري، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٠م، الصفحة ٢١.

ونجا ابن حفصون ومن يكن الردى والسيف طالبه فليس بناج

في ليلة أسرت به فكأنما خيلت لديه ليلة المعراج^(١)

يصور لنا الشاعر أحداث المعركة والفتح الذي حدثت على يد القائد، موظفاً الخطاب الديني في سرده للأحداث مستحضراً فيه قوله تعالى: (فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا) الإسراء: ٥. فقد اشتملت هذه الآية على وعد دخول المسلمين بيت المقدس والانتصار على اليهود، وكذلك استحضر قوله تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) الإسراء: ١. فقد جاس جنود المسلمين في ديار ابن حفصون بعد هزيمته ومعه جنوده، فحملت هذه الأبيات تشبيهات وكنائيات منها أسد العرين فهذه اللفظة كناية عن جيش الخليفة، وسرب النعام كناية عن جيش ابن حفصون، فجعلت من جمال النص بالاعتباس القرآني جمالاً ثانياً.

والمديح في البواعث السياسية للخطاب الديني عند ابن عبد ربه، إذ يقول في مديح الأمير عبد

الله بن محمد:

إذا فُتِحَتْ جَنَاتُ عَدْنٍ وَأُزْلِفَتْ فَأَنْتَ بِهَا لِلْأَنْبِيَاءِ رَفِيقٌ^(٢)

فالشاعر هنا يمدح الأمير عبد الله لجلوسه على عرش الخلافة وتوليته الإمارة، وقد استحضر قوله تعالى: (وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ) ق: 13؛ ليجعل من الممدوح رفيقاً للأنبياء في جنات عدن، وجاء المدح في الخطاب الديني؛ لمكانة الأمير الدينية.

وصفوة القول إنَّ الشاعر في سعي دائم في قول القصائد السياسية سواء ما يتعلق في الجهاد في سبيل الله والنصر والفتوحات ووصف الحروب، أو مدح القادة والأمراء أو غير ذلك، وهو في سعيه هذا يلجأ الى توظيف الخطاب الديني المتضمن معاني وألفاظ القرآن الكريم ليبحث عن مدى لصوته وأصداء لتجربته، ويفتش عن وجوه تعكس تجربته أو تؤكدتها^(٣).

(١) الديوان: ٦٠ .

(٢) الديوان: ١٢٢ .

(٣) الصوت وأبعاده، مشهور فوز، مجلة عمان، العدد: ٥٢، سنة ١٩٩٩م، الصفحة: ٣٠.

المطلب الثاني: الباعث النفسي:

يُعد الباعث النفسي حافزاً عند الشعراء على الانتاج الإبداعي والتعبير عن مكنوناتهم الداخلية، فالشعر "لم يكن ضرباً من الخوارق والقوى الخفية والهواجس الغيبية التي تتجسد في شياطين الشعر، بل كان نتيجة بواعث نفسية تعتمل في ذات المبدع وتحفزها على الإنتاج الإبداعي التي تقف وراء أصالة التجربة الشعرية ونضجها الفني"^(١)، وقد وجد ابن عبد ربه في هذا الباعث طريقاً ممهداً للبوح عمّا في داخله وما يعتلج قلبه؛ ليُخفف به عن المعاناة النفسية^(٢)، وقد شارك هذا الباعث في تشكيل الخطاب الديني في أشعاره والتي وظّفها للتحذير من الآخرة ونذيرها، والدنيا وزينتها، والتذكير بالموت، والشيب الهرم، والذي يقرأ ديوان ابن عبد ربه يلحظ الكثير من الأشعار التي تحمل خطاباً دينياً تحت البواعث النفسية، ومنها يقول:

إذا أخضر منها جانبٌ جفّ جانبٌ	ألا إنّما الدنيا نظارة نضارة أئكةٍ
عليها ولا اللذات إلا مصائبُ	هي الدار ما الآمالُ إلا فجائع
وقرّت عيوناً دمعها اليوم ساكب	فكم سخنت بالأمس عينٌ قريّة
على ذاهبٍ منها فإنك ذاهب ^(٣)	فلا تكتل عيناك فيها بعبرة

يذكر لنا الشاعر في الابيات السابقة الدنيا وقد صورها لنا تصويراً بارعاً بتشبيهات جميلة فنجده يشبه الدنيا بالشجرة الكبيرة العظيمة المتشابكة الأغصان، فبعضها خضرة جميلة المنظر والبعض الآخر جرداء يابسة بعضها يتغذى على بعض، كذلك الدنيا كصورة هذه الشجرة فأنها تحمل الفرح في حياتنا والحزن والنقصان في الجانب الآخر، وهذا التشبيه "مفعم بالحياة على

(١) البواعث النفسية في شعر فرسان ما قبل الإسلام (دراسة نفسية تحليلية)، ليلي نعيم عطية الخفاجي، جامعة بغداد، كلية الآداب، ٢٠٠٢م الصفحة: ٦.

(٢) ينظر: البواعث النفسية الخارجية منافذ للتعبير النفسي في قصائد الشعراء الطائيين، خومار سلام بهرام، مسعود سليم، جامعة كويه كلية التربية، ٢٠٢٣م، الصفحة: ٢١.

(٣) الديوان: ٤٩ .

بساطته وقرب مأخذه"^(١)، فقد اقتنص الشاعر العلامة الدقيقة بين المشبه والمشبه به بكلفة جوانبها من سرور في النظر"^(٢).

ويقول في ذم الدنيا وذكر الموت:

ألا إنّما الدنيا كأحلام نائمٍ وما خيرُ عيشٍ لا يكون بدائمٍ
تأمل إذا ما نلت بالأمس لذةً فأفنيتهَا، هل أنت إلا كحالمٍ؟
وما الموتُ إلا شاهدٌ مثل غائبٍ وما الناس إلا جاهلٌ مثل عالمٍ^(٣)

يبدو أنّ الشاعر هنا قد أحسَّ بوصول قطار عمره إلى نهاية المسير، وبدى كذلك أنّ هذا المسير طويل وشاق؛ فقد بان عليه التعب والحزن من الشيخوخة التي صار إليها، فذهب يرجو أن تمحى عنه ما قد سلف من الأعمال والأقوال مشبهاً الدنيا وما عليها وملذاتها بأحلام نائم والتي ما لبثت ان تزول عند يقظته، وأنّ الموت آتٍ لا مفرّ منه، وبدا لنا أنّ الدكتور إحسان لم يكن منصفاً بعض الشيء عندما تحدث عن حياة ابن عبد ربه في قوله: "ونقرأ شعره في الزهد وذم الدنيا فلا نجد إحساساً حقيقياً بمعنى الخوف"^(٤)، على العكس فالكثير من الأبيات الشعرية في نهاية حياته تجد فيها التوبة واللجوء إلى الله سبحانه وتعالى.

قوله في الشيب:

إنّ اللذين اشتروا دنيا بآخرة وشقوةً بنعيم، ساء ما تجروا

(١) ملامح الشعر الأندلسي، الدكتور عمر الدقاق، منشورات دار الشرق، بيروت، ١٩٧٥م، الصفحة : ٧٧.

(٢) ينظر: التشبيه في شعر ابن عبد ربه الأندلسي (دراسة بلاغية تحليلية)، سعدالله بن صالح الزهراني، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، كلية اللغة العربية، السعودية، ٢٠١٥م-١٤٣٦هـ، الصفحة: ٦٢.

(٣) الديوان: ١٥٧.

(٤) تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، د. احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٦٩م، الصفحة: ١٩٦.

يا من تلهى وشيب الرأس يندبه ماذا الذي بعد شيب الرأس تنتظر^(١)

يقيم الشاعر هنا ثنائية ضدية بين الدنيا والآخرة، مستحضرا قوله تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) البقرة: ٦٨. إذ يستذكر حال من أمدهم الله بطغيانهم بعد أن غرتهم الحياة الدنيا فحسروا الآخرة، فيذكر نفسه في هرمه بحال هؤلاء حتى لا يكون منهم، وحثها على التوبة. فقد استدعى الخطاب الديني ليكون أكثر تأثيراً وفاعلية في نفسه وفي المتلقي الذي انشغل في الدنيا عن الآخرة .

ومنها قوله أيضا:

بأدر على التوبة الخلاء مجتهداً والموت ويحك لم يمدد إليك يدا
وأرقب من الله وعداً ليس يخلفه لا بدّ من إنجاز لما وعدا^(٢)

في هذين البيتين نجد أنّ الشاعر توجهه صادق للتوبة واللجوء إلى الطمأنينة عند الله سبحانه وتعالى، ليغفر له على تقصيره وإقراره بالذنوب وذكره للموت، فالشاعر مؤمن إيماناً صادقاً بأن الله سبحانه وتعالى لا مخلف لوعده، فوظف الخطاب الديني وذكر اسم الله العظيم لجعل لهذين البيتين وقع كبير في المتلقي، وكان هذا النوع من الشعر هو "السمة الغالبة على شعره في آخر عمره، وذلك لما تحركه اليقظات الروحية في مثل هذه السن المتقدمة في العمر"^(٣)

ويذكر الموت إذ يقول:

من لي إذا جدت بين الأهل والولد وكان مني نحو الموت قيد يد
والدمع يهمل والأنفاس صاعدة فالدمع في صبيب والنفس في صعد

(١) الديوان: ٩١.

(٢) الديوان: ٦٨.

(٣) شعر أحمد بن عبد ربه الأندلسي دراسة تحليلية نقدية، عمر السيد الطيب العباس، اطروحة دكتوراه، جامعة

أم القرى بمكة المكرمة، السعودية، ١٩٨٨م، الصفحة: ٢٣٤.

ذاك القضاء الذي لا شيء يصرفه حتى يُفارق بين الروح والجسد^(١)

يصوّر لنا الشاعر مشهداً وقت دنو الأجل وحضور الموت، والأحداث الحزينة التي تصاحب ذلك المشهد، فتراه يقف موقف المؤمن بقضاء الله سبحانه وتعالى بكل خشوع طامعاً بالمغفرة والرضوان من الله عزّ وجل، فوظف الشاعر الدلالات الدينية في النص ليكون أكثر تأثيراً في نفسه والمرسل إليه .

وصفوة القول إنّ الشاعر في صراع مستمر مع النفس، فكان ذلك حافزاً له على الإبداع والتعبير عما في داخله وما يعتلج صدره؛ ليخفف به عن معاناته النفسية، فنتج عن ذلك الباعث إنتاج إبداعي وُظف في النذير من الآخرة والدنيا وزينتها، والدعوة إلى التوبة وذكر الموت، والشيب والهزم .

المطلب الثالث: الباعث الاجتماعي:

ليس ثمة شك بأنّ الخطاب الديني هو رافد مهم من أهم الروافد الداعمة للمجتمع، كونه يساهم وبشكل فعّال في ترسيخ العادات والقيم التي ستؤثر حتماً في سلوك الأفراد وأخلاقيتهم، فللدين دور مهم في تهذيب النفوس وترقيق القلوب، وضبط الجوارح، لذلك لا يجد الشعراء بُدّاً من استدعاء المعاني والألفاظ الدينية وتوظيفها في نصوصهم الشعرية، لتؤدي دورها في قولبة الوعي الاجتماعي بقالب ديني يساهم في إشاعة عادات دينية وإسلامية قيمة، ويساهم في الوقت نفسه في نبذ العادات والقيم السيئة .

ف نجد في دراستنا لهذا الباعث على سبيل المثال أنّ ابن عبد ربه يذم البخل مستقيداً مما ورد في القرآن الكريم من قصة موسى عليه السلام لما استسقى لقومه فأمره الله تعالى أن يضرب بعصاه الحجر، إذ يقول:

فصادفت حجراً لو كنت تضربه

من لؤمه بعضا موسى لما انبجسا

كأنما صيغ من بخل ومن كذب

فكان ذاك له روحاً وذا نفساً^(١)

(١) الديوان: ٧٦ .

يشبه الشاعر بخل الموصوف إذ بالغ في وصفه حتى يرى أن يده من شدة امسакها وبخلها ولؤمها ما كانت لتعطي شيئاً أو تجود بشيء حتى لو ضربت بعصا موسى عليه السلام، تلك العصا التي انفجرت من ضربتها اثنتا عشرة عينا، وفي ذلك دلالة على شدة البخل .

ولا يخرج النص الشعري التالي عن المعنى المذكور أعلاه فهو كذلك يخرج إلى التحذير من صفة البخل والتأكيد على أن البخل والشح هما خلقان مذمومان، بعكس الكرم والبذل:

أفدني كريما فالكريم رضاء	أبا صالح أين الكرام بأسرهم
وابن سنان كان فيه سخاء	أحقا يقول الناس في جود حاتم
غباء ولؤم فاضح وجفاء	عذيري من خلف تخلف منهم
تفجر من صم الحجارة ماء	حجارة بخل ما تجود وربما

أقام الشاعر في هذا السياق الشعري ثنائية ضدية بين الكرم والبخل، مستدعيًا شخصيات تراثية لطالما ضرب بها المثل بالعتاء والبذل، وموظفًا خطابًا قرآنيًا تلخصه الآية الكريمة (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) II بقرة: ٤٧. لقد صور ابن عبد ربه ساخرًا بخل الموصوف بأثمة كالحجارة بل أشد منها صلابة وقسوة، فالحجارة قد تتفجر أو تتشقق فتجود بالماء والأنهار، إلا أن من وصفه لا يرتجى منه كرمًا ولا بذلا .

وثمة تحذير وتنبيه من نوع آخر يعمد إليه الشاعر ليؤسس لمجتمع يحيى ويموت على الثوابت والقيم الدينية دون حيادة أو غفلة عنها حيث يقول:

أنت من الهلاك على شفير	أتلهو بين باطية وزير
تريك مكان قبرك في القبور	أفرح والمنية كل يوم
فإن الحزن عافية السرور ^(٢)	هي الدنيا وإن سرتك يوما

(١) الديوان: ١٠٢، ١٠٣

(٢) الديوان: ٩٧.

ويقول في موضع آخر:

عائِن بقلبك إنَّ العين غافلة عن الحقيقة واعلم أنها سقر
سوداء تزفر من غيظٍ إذا سُعرت للظالمين فما تبقي ولا تذر
إنَّ الذين اشتروا دنيا بآخرة وشقوة بنعيم ساء ما تجروا^(١)

في كلا النصين دعوة للمتلقي بأن يراقب الله في أفعاله وأقواله دون غفلة أو تعلق بالدنيا وملذاتها، فالدنيا كما وصفها الله تعالى في مواضع قرآنية عديدة بأنها متاع ولهو وعرض زائل، وأن الآخرة هي دار القرار، فلا اعتبار ولا قيمة للدنيا أمام الآخرة، فالخطاب الشعري يتجه من المرسل إلى المرسل إليه محملاً بحمولة حاجية تعمل على ترويض المستقبل وتهذيبه مستفيدة من المعاني والألفاظ القرآنية السامية، بمعنى آخر إنَّ الخطاب الشعري استدعى النص الديني ليكون أكثر فاعلية وتأثيراً في المتلقي المجهول على حب الدنيا والرغبة في طول العمر في مقابل

الغفلة عن الآخرة وسعير نار سقر التي لا تبقي ولا تذر متأثراً في قوله تعالى: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ) المدثر: ٧٢ .

ومن التحذير من الغفلة إلى التحذير من المنجمين وأكاذيبهم، فكلا الأمرين قد يوقعا المجتمع فيما لا يرضي الله، ويؤديان في النهاية إلى تفكك المجتمع وضياع هويته الدينية وقيمه وعاداته الثابتة، يقول الشاعر:

فكلكم يكذب في علمه وعلمكم في أصله كاذب
ما أنتم شيئاً ولا علمكم قد ضعف المطلوب والطالب
تُغالبون الله في حكمه والله لا يغلبه غالب^(٢)

أنَّ قصد المنجمين وتصديقهم مما يؤدي إلى تعمية الوعي وتضليله، لأنه يوهم المتلقي ويزيِّف له الحقائق، بدعوى معرفة الغيبات وكشف المضمرة والمستور، وهذا من شأنه أن يساهم في التأسيس لمجتمع يقات على الأقاويل والأكاذيب، وينسى أنَّ الحق والعلم كله بيد الله سبحانه

(١) الديوان: ٩١ .

(٢) الديوان: ٤٨ .

وتعالى، لذلك عمد الشاعر للتأكيد على كذب المنجمين وبطلان دعواهم، وبأنهم وعلمهم لا شيء أمام علم الله وقدرته، فاقتبس من قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسئُبُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) الحج: ٣٧.

وصفوة القول إنَّ الشاعر في سعي دائم لتتقية المجتمع من الآفات والأمراض الاجتماعية، سواء ما يتعلق بالتحذير من البخل أو المنجمين، والتحذير من الآخرة ونذيرها أو غير ذلك، وهو في سعيه هذا دائم اللجوء إلى المعاني القرآنية؛ لأنَّ فيها الترغيب والترهيب، وهي وسيلة فاعلة لإقامة مجتمع سليم، لا تشوبه أي شائبة، ولا يعكر صفوه أي خلق أو سلوك ذميم .

الخاتمة

بعد أن انتهينا من جولتنا السريعة في أشعار ديوان ابن عبد ربه الأندلسي حاولت فيها الوقوف على دوافع الخطاب الديني في شعره . وقد لمس الباحث النتائج الآتية:

- ١- شكّل القرآن الكريم رافداً مهماً من الروافد التي أغنت ثقافة الشاعر ابن عبد ربه، فوظف المعاني والألفاظ الدينية في نصوصه الشعرية .
- ٢- جاء الخطاب الديني واضحاً في التشكيلات الشعرية عند ابن عبد ربه، لما كان عليه من ثقافة دينية شأنه في ذلك شأن الكثير من شعراء الأندلس .
- ٣- وجد الشاعر في الأوضاع السياسية الباعث المهم في توظيف الخطاب الديني؛ لأنَّ نظام الحكم قائم على الدين، وقد فتحت أمامه الأفق لوصف المعارك والفتوحات، ومديح القادة والأمراء، وكان ذلك باستدعاء الكثير من نص القرآن الكريم.
- ٤- إنَّ الخطاب الديني رافد مهم من الروافد الدائمة للمجتمع، فهو يسهم في تهذيب النفوس ويؤثر في سلوك الأفراد وأخلاقيتهم.
- ٥- جاء استدعاء الشاعر للنص القرآني لأنَّه وجد فيه أكثر قبولاً وفعالية في المتلقي.
- ٦- الصراع الداخلي المستمر الذي كان يعيشه ابن عبد ربه بعد أن شارف قطار عمره من الوصول إلى النهاية، ومعاناته النفسية لما كان عليه في بعض من أوقات شبابه، نتج عن ذلك

قصائد شعرية منها في التوبة والموت، والندير من الآخرة وعذابها أُطلق عليها اسم (المحصات).

التوصيات: يوصي الباحث إلى دراسة موضوعية فنية شاملة للبواعث الدينية؛ فقد حمل ديوان ابن عبد ربه الكثير من الأشعار التي استدعى فيها الخطاب الديني ويمكن التوسع في هذه الدراسة .

المراجع

- القرآن الكريم.
- الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، د. أحمد هيكل، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥م.
- أدب السياسة في العصر الأموي، احمد محمد، دار نهضة للطبع والنشر ١٩٧٩م.
- البواعث النفسية الخارجية منافذ للتعبير النفسي في قصائد الشعراء الطائيين، خومار سلام بهرام، مسعود سليم، جامعة كويه كلية التربية ٢٠٢٣م.
- البواعث النفسية في شعر فرسان ما قبل الإسلام (دراسة نفسية تحليلية)، ليلي نعيم عطية الخفاجي، جامعة بغداد، كلية الآداب، ٢٠٠٢م.
- تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، د. احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٦٩م.
- التشبيه في شعر ابن عبد ربه الأندلسي (دراسة بلاغية تحليلية) سعدالله بن صالح الزهراني، رسالة ماجستير، الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة، كلية اللغة العربية، السعودية، ٢٠١٥م- ١٤٣٦هـ.
- ديوان ابن عبد ربه الأندلسي، حققه وشرحه الدكتور محمد التونجي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- رايات المبرزين وغايات المميزين، ابن سعيد، علي بن موسى بن عبدالملك المغربي، تحقيق: د. النعمان عبد المتعال القاضي، القاهرة ١٩٧٣م.
- شعر أحمد بن عبد ربه الأندلسي دراسة تحليلية نقدية، عمر السيد الطيب العباس، اطروحة دكتوراه، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، السعودية، ١٩٨٨م .
- الصوت وأبعاده، مشهور فواز، مجلة عمّان، العدد: ٥٢، سنة ١٩٩٩م.

- معجم الأدباء، ياقوت بن عبدالله الرومي الحمومي، (ت:٦٢٦هـ)، تحقيق: احسان عباس، دار الغرب الاسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م .
- معجم آيات الاقتباس، حكمت فرج البدري، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٠م.
- المفيد في الأدب العربي، احمد أبو حاقه، جوزيف النياس، ايليا حاوي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٦٤م .
- ملامح الشعر الأندلسي، الدكتور عمر الدقاق، منشورات دار الشرق، بيروت، ١٩٧٥م.